الجولة الخامسة

— ١ —

درج المسلمون خلال عصور متطاولة أن يكون للواحد منهم مذهبه الفقهى فهذا حنفى وهذا شافعى وهذا حنبلى وهذا مالكى ومن قبل كانت هناك مذاهب أخرى كثيرة وكان لها أتباع فهذا أوزاعى وهذا ثورى وهكذا . والذى دعا الناس الى ذلك هو أن نصوص الكتاب والسنة تحدثت فى كثير من الأحيان باجمال ، وشىء عادى ألا يكون كل انسان قادرا على الوصول الى الأحكام التى لم ينص عليها صراحة فى الكتاب والسنة ومن ثم فان الناس كانوا يسألون أهل العلم عن هذه الأحكام ، وبلغ ناس درجة الامامة فى استنباط الأحكام على ضوء قواعد أصولية منضبطة ، وسلم الناس لهم بهذه الامامة واعتبروا أن لكل مسلم الخيار فى أن يسأل أى واحد من هؤلاء عن أى مسألة واذا أجابه فله العمل بما أفتاه واعتبر الناس أنه من الأشياء العادية أن يتفقه المسلم على امام من أئمة المسلمين ، ولم يكن فى ذلك ما يستنكر ما دام الامام أهلا للاجتهاد وبما اجتمع له من علم راسخ ومن ورع ومن ملكة استنباط ، واستقر الكثيرون على المذاهب الأربعة لأسباب منها :

— أنها المذاهب التى استمرت مدارسها متمثلة بمحققين وأتباع .

— أن المذاهب الأخرى انقطعت اما بسبب عدم كفايتها أو عدم وجود التحقيق أو التأليف أو الاتباع .

— أنه لا اطمئنان فى شأن الفتوى الا على مذهب من هذه المذاهب الأربعة لأن قواعدها وأصولها وفروعها محفوظة منقولة فاذا أراد الانسان أن يتعرف على حكم فانه يستطيع ذلك لأن كل حيثيات الأمور منضبطة . أما المذاهب الأخرى فهى منقولة فى الكتب عن أئمتها . ولكن لا يعرف ما اذا كان للقول المنقول حيثيات أخرى عند صاحب المذهب لجواز الافتاء بهذا القول هذا عدا عن كون المذاهب الأربعة لها قواعدها الأصولية فى الاستنباط محفوظة وموجودة وبذلك يستطيع الانسان أن

يتعرف ويطمئن وعلى ضوء قناعته بأصول امام يستطيع أن يتبنى مذهبه ويطمئن الى فتواه وهذا غير متوفر على كماله الا فى المذاهب الأربعة تقريبا •

وبجانب المذاهب الفقهية الأربعة لأهل السنة كان يوجد أهل الحديث وقريب منهم مذهب الظاهرية ولكن أهل الحديث لم يشكلوا فى يوم من الأيام مذهبا ، بل أكثرهم كانت لهم مذاهبهم الفقهية وفى الغالب لهم تحقيقات •• ونستطيع أن نقول ان المذهب الظاهرى ما خرج عن ذلك لأن المذهب — حتى يعتبر مذهبا — لابد أن يكون فيه جواب على كل سؤال اما جواب امام المذهب أو جواب على أصول امام المذهب • أما اذا لم يكن كذلك فلا يعتبر مذهبا • لأن أمهات المسائل معروفة مشهورة ومهمة المجتهد ومذهبه الاجابة على كل سؤال يحتاجه امتداد الاسلام فى الزمان والمكان ، ان المسائل التى يحتاج الى معرفتها الانسان اما أن يمشى الانسان فيها على جهل وهذا حرام ، أو على علم ، وهذا يقتضى منه أن يكون مجتهدا ، أو أن يسأل مجتهدا ، ومن الصعب أن يكون الانسان مجتهدا لكثرة الشروط التى يجب أن تتوافر فى المجتهد ، فلم يبق أمام أكثر الخلق الا أن يتفقهوا على مذهب امام مجتهد ، وأن يستفتوه فى المسائل والحوادث وذلك واجب شرعى كيلا يسير الانسان على غير بصيرة وهذا الذى يجعل الأمة تستقر على المذهبية الفقهية •

* * *

والناس فى الأحكام العملية التى هى مدار علم الفقه ثلاثة أقسام : انسان وصل الى رتبة الاجتهاد وانسان عالم بمصادر القول وموارده ولم يصل الى رتبة الاجتهاد وانسان عامى عادى • أما الأول فمكلف فى السير على ما يوصله اليه اجتهاده • وأما الثانى فمكلف أن يسير على رأى من اقتنع أن معه الحق من الأئمة ، وأما الثالث فله أن يتابع أى امام من الأئمة فمن سأله فأفتاه فله أن يعمل بفتواه ان كان من أهل الفتوى والهدى ومن ثم قال العلماء : العامى(١) لا مذهب له وقالوا : العامى مذهبه مذهب مفتيه •

وعلى هذا فشىء عادى أن يوجد فى هذه الأمة مجتهدون ، وأن يوجد علماء فى مذاهب هؤلاء المجتهدين ويفتون ويفقهون على مذاهبهم ،

---

(١) المراد بالعامى هنا غير العالم المختص بالشريعة أو غير المجتهد •

وأن يوجد بعد ذلك عامة يتفقهون على مذهب امام وأن يأخذوا بفتوى أى امام مجتهد .

* * *

وشىء عادى أنه من الأسهل للعامى أن يعتمد اماما مجتهدا ويتفقه على مذهبه ، حتى لا يضيع فى خضم الأقوال المتعددة . فالفقه على مذهب واحد أسهل على الانسان وأقرب لتفقهه وأبعد عن ضياعه وأجدى أن يعرف كيفية البحث عن المسألة التى يحتاج الى معرفة حكمها ، وكما أن ذلك أسهل على العامى فهو أسهل على العالم .

* * *

صحيح أنه لابد للعالم أن يكون ملما بالكتاب والسنة وشروحهما ، ولابد له أن يعرف أصول الاستنباط والأحكام المستنبطة . ولكن أن نكلفه بمعرفة كل حكم قاله فقيه فهذا يقتضيه أن يقرأ ملايين الصفحات ومن ثم فالعالم ليتقن الفتوى لابد له من التفقه على مذهب امام بعينه ليستطيع الفتوى على مذهبه ، فاذا كان هذا فى شأن العالم فكيف فى شأن العامى ؟

* * *

يستطيع العالم بالمذهب اذا استفتيته أن يجيبك ان كان مستحضرا جواب امامه فى المسألة والا فانه يستطيع الرجوع الى كتب المذهب والا فانه يستطيع أن يجيبك على ضوء قواعد المذهب ان كان قد أتقن أصول المذهب .

ويستطيع العامى أن يدرس كتابا مختصرا فى مذهب ما خلال أيام أو شهور واذا به فقيه فى أمهات المسائل التى يحتاجها الانسان ومن ثم وجدت المذهبية الفقهية التى كان الهدف منها التسهيل والبعد عن الضياع .

فالمذهبية الفقهية فى الأصل كانت وليدة قناعة بطرق الاستنباط والاقتصار فى التفقه على مذهب كان وليد الاحتياج للتسهيل والتبسيط فى الحياة العملية .

* * *

ان مجموع مذاهب الأئمة انما هى انبثاق عن الكتاب والسنة وعن طرق الاستنباط التى حددتها نصوص الكتاب والسنة ولم يقل امام رأيا

من عند نفسه بدافع الهوى ولم يقل ما قال الا وهناك وجهة نظر علمية دفعته لذلك • والارث الفقهى ارث ضخم وثروة تشريعية هائلة تجعل هذه الأمة على غنى فى وجهات النظر أمام الحوادث بما يسع احتياجات الزمان والمكان ومن ثم فاننا نقول :

انه ما وجد الاختلاف فى بعض المسائل بين الأئمة الا لوجهات نظر تقتضى ذلك والا لضرورات أوصلت الى ذلك ، ومن ثم فان احتياجات الأمة الاسلامية لا يسعها الا مجموع أقوال الأئمة والمجتهدين على امتداد الزمان والمكان • وكل من يتصور أن مذهبا واحدا يسع الناس زمانا ومكانا فانه واهم • ولذلك فانك لا تجد فترة من الفترات الا والناس يستفتون أكثر من مذهب وتجد حتى علماء المذهب يرسلون الى علماء مذهب آخر يستفتونهم فى بعض الأمور لشعورهم بضرورة ذلك فى مسألة ما •

* * *

وخـــلال التاريخ الاسلامى كله كانت مناقشات وتحقيقات بين الاتجاهات الفقهية والمذهبية يقوم بها العلماء فى المذاهب أو المحدثون أو المفسرون دون تكبر ، وكثيرا ما نجد العالم فى المذهب يترك مذهبه فى مسألة الى مذهب امام آخر لقناعته أن الدليل معه وكل ذلك كان ويكون ولا حرج على فاعله الا أن صورة واحدة كانت مكروهة عند العلماء هى أن يترك العالم المقتنع بمذهبه مذهبه الى مذهب آخر لسبب دنيوى لا بسبب قناعة دينية وهو أمر للكراهة فيه وجهها غير المستنكر وهذا كله فى العالم البصير بأدلة مذهبه المقتنع بها أما العامى فالأمر فى حقه مختلف كما رأينا لأنه لا مذهب له •

* * *

وهناك موضوعان يحتاجان الى استشراف شامل على كل أقوال العلماء : موضوع الدولة والحكم ، وموضوع الدعوة والتربية والارشاد •

أما الدولة فالأصل أن يكون امام المسلمين مجتهدا قد وصل الى رتبة الاجتهاد وليستطيع أن يجابه احتياجات الأمة الاسلامية والدولة الاسلامية ، وبالتالى فانه فى الأصل ليس مقيدا باجتهاد مجتهد • أما اذا لم يكن الامام مجتهدا فان له حق اختيار قول من مجموعة الأقوال الفقهية فى القضية الواحدة وفرضه على الناس ، ولذلك شروط ، منها :

ـ أن يكون الحامل على ذلك المصلحة .

ـ أن يكون الأمر قد أشبع شورى .

وأما الدعوة والتربية والارشاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فان صاحب ذلك ليس مقيدا بمذهب ، فالمرشد والمربى لا يتقيد بمذهب لاحتياجه الى خطاب أصناف من الناس ولمواجهة حالات متعددة وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يستطيع الآمر أن يشتد فيما كان له وجه فى مذاهب أخرى وله الحق أن يناقش بالمعروف للحمل على أعلى الأقوال وأشدها فى القضية الواحدة وهكذا ..

هذا ما عليه أهل العلم فى هذا الشأن شأن الفقه ومذاهبه المتعدده ومدارسه المختلفة . فلنر لم استقر الناس على هذا من خلال التعرف على قضية المجتهد وهى عقدة هذا الشأن ؟

* * *

لابد حتى يصل انسان الى رتبة الاجتهاد من أن يكون ملما الماما كاملا فى اللغة العربية وهو موضوع ثقيل بعيد الغور لا يدرك معناه الا من عاناه ولابد أن يكون عالمـا بالكتاب والسنة وهو موضوع واسع الحيثيات لا يصل الى العلم به الا موفق .

ولابد مع ذلك كله أن يعرف اتجاهات العلماء فى المسائل العملية حتى لا يقع فى مخالفة اجماع .

ولابد مع ذلك أن يكون له مذهبه فى الاسـتنباط وقدرته على الاستنباط وهذا لا يتوفر لأحد الا بتوفيق .

ولابد مع ذلك كله أن يكون عارفا بعصره وبما يجرى حوله ، عارفا بمجريات الأمور وأحوال الناس لمـا يترتب على ذلك من تأثير على الفتوى ، فالفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا وهذا بعض ما يشترط فى المجتهد ، ومن تصدر للاجتهاد وهو ليس أهلا له يخشى عليه أن يضل ويضل ، لأنه قد يفتى محلا حراما ومحرما حلالا وأجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار ، والقاضى اذا قضى بغير علم كان من أهل النار . وفى الحديث : قاض الى الجنة وقاضيان فى النار » . واذا كان

الأمر كذلك فان الأمة لم تسلم برتبة الاجتهاد الا للقليل ، وهذا القليل هو الذى سلمت الأمة لفتواهم ولفقههم .

* * *

فى هذه الشريعة هناك القواعد العامة وهناك الحالات الاستثنائية هناك النصوص وهناك تأثير العوارض على النصوص .

ما هى حالات الاضطرار وتأثيراتها على القواعد العادية ؟ وما هى حالات الاكراه وتأثيراتها ؟

ما هى حالات الضرورة فى حق الفرد والأمة وتأثيراتها على الأحكام العادية ؟ ما هى تأثيرات العرف على الأحكام ؟ هناك نصوص وردت فى حالة استثنائية ونصوص كانت بسبب سياسة يومية وهناك نصوص للحالات الدائمة والعادية كل ذلك يجعل الفتوى صعبة ، ويجعل المؤهلين لرتبة الاجتهاد قليلين ولذلك فقلة هم الذين سلمت لهم الأمة برتبة الاجتهاد .

ومن هنا ندرك لم ينبغى أن يكون أمير المؤمنين قد وصل الى رتبة الاجتهاد(١) ؟ وما ذلك الا لأن الحالات التى تصادف الدولة وأفرادها من حالات داخلية أو خارجية لا تعد ولا تحصى . ومن ثم فانه لا يستطيع أن يواجهها الا امام مجتهد .

* * *

مما مر ندرك سبب ما استقر عليه العمل عند أهل العلم فى موضوع الفقه ومدارسه المتعددة وأسباب ذلك وضرورته . وجاءت الحركة الاسلامية المعاصرة وكان مؤسسها اماما قد وصل الى رتبة الاجتهاد وهو حسن البنا رحمه الله فماذا كان موقفه من هذه القضية ؟

قبل أن أجيب على ذلك أحب أن أسجل صفحة مهمة :

كان شيخنا الشيخ محمد الحامد رحمه الله وهو الذى لم تقع العين على مثله ورعا والتزاما واخلاصا وتحقيقا وتمسكا بما ظهر له من حق كان شيخنا هذا رحمه الله من الذين يرون أن باب الاجتهاد قد أغلق فى هذه

---

(١) هذا هو الأصل فى الخليفة فاذا لم يوجد فلا يتوقف اعطاء منصب الخلافة على مثل ذلك .

الأمة وهو موضوع تكلم فيه العلماء منذ عصور بسبب رؤيتهم تعذر وجود مجتهد يحيط باتجاهات العلماء بعد مسيرة الأمة الاسلامية كذا قرنا ومع أن شيخنا رحمه الله كان يرى ذلك فانه كان يقول عن الأستاذ البنا رحمه الله بأنه وصل الى رتبة الاجتهاد • هذا مع أن الشيخ رحمه الله كان له مناقشات حادة وطويلة مع الأستاذ البنا فى كثير من الأمور وكثيرا ما رجع الأستاذ البنا الى رأيه • وكان الشيخ الحامد رحمه الله يقول عن الأستاذ البنا : كان لى زعيم ومات وكان الى آخر عمره اذا ذكره يبكيه بكاء مرا رحم الله الاثنين ونسأل الله أن يلحقنا بهما فى عليين مع الرسل والأنبياء والشهداء والصالحين •

ان الأستاذ البنا رحمه الله الذى هذا شأنه هو واضع نظريات العمل الاسلامى المعاصر وكل كلمة من كلماته يجب أن ننظر اليها بمنظار دقيق • انه اذا كانت الفتوى لا يستطيعها أى انسان فكيف بنظريات العمل الاسلامى فى عصر معقد وبعد تاريخ طويل ذى مآس متعددة وفى مرحلة ضعف رهيبة أصابت الاسلام والمسلمين ؟

فماذا كان رأى الأستاذ البنا رحمه الله فى موضوع الفقه ومذاهبه ؟

يرى الأستاذ البنا أن لكل مسلم الحرية فى اختيار مذهبه الفقهى . وعليه أن يقوم بدراسة هذا المذهب واتقان مسائله وأدلته كما أن عليه أن يرتفع الى آفاق التحقيق ان استطاع ذلك •

ولا يرى الأستاذ البنا للجماعة أن تتبنى مذهبا بعينه قبل السلطة وبعدها لأنه لا يسع حاجات المسلمين ويعطى للدولة حق اختيار القول المناسب فى القضية المطروحة •

وجاء سيد قطب رحمه الله وحذر من موضوع التبنى اليومى للرأى الفقهى ، وحذر من موضوع المعالجات الجزئية لاتجاهات الجاهلية ، ولم يكن سيد قطب فى ما ذهب اليه متناقضا مع الأستاذ البنا بل كان موضحا لمرقف هو فى الأصل موقف الأستاذ البنا ، ولكن الناس فهموه فهما خاطئا وهذا ظلم كبير لسيد رحمه الله • وسيد ظلم كثيرا ظلم من خصوم حرفيين لم يفهموه فحملوا كلامه ما لا يحتمل ، وظلم من أصدقاء غلاة لم يفهموه فوضعوا كلامه فى غير محله •

* * *

حاولنا فى هذه الرسالة وغيرها أن نبين أن هناك شيئا اسمه حق العلم وشيئا اسمه حق الدعوة وشيئا اسمه حق التربية وشيئا اسمه حق المعركة • فحق الدعوة يقتضى منك أن تركز على معان قبل غيرها وألا تقع فى منزلق يريد أعداؤك أن يستفرغوا طاقاتك فيه • وحق العلم يقتضى منك أن تبين الحق فى كل أمر وأن تفتى فى المسألة المطروحة أمامك • لقد كان سيد فى ما ذهب اليه يتحدث عن حق الدعوة فحق الدعوة يقتضى منك ألا تتبنى فى هذه المرحلة موقفا جزئيا من قضية هى وليدة المجتمع الجاهلى وألا تستفرغ طاقاتك فى بحث مشاكل آنية قد لا تصادفها كلية بعد السلطة وذلك وضع منطقى وطبيعى ، ولكن هل يحرم سيد على أن أستفتى العلماء مثلا فى أمر أنا أعانى منه أو أن أستفتى العلماء فى امكانية الاستفادة من قانون أو فى حل شىء أو حرمته ؟ حتما لم يخطر هذا على باله وهو يتكلم ما تكلم ولكن الناس غلطوا فى الفهم عنه •

ان سيدا لم يدرس العلوم الاسلامية التقليدية فى الغالب ولذلك فهو بعيد فى تعبيراته عن اصطلاحاتها ويأتى كثير من الحرفيين الدارسين لهذه العلوم ليحاسبوا سيدا رحمه الله فى تعبيراته على هذه المصطلحات وهو لا يريد فى تعبيراته مطابقة أو مناقضة هذه الاصطلاحات لأنه يتكلم بعيدا عنها فأن يحاسب من خلالها فذلك ظلم له وسيد لم يرد فيما كتب أن يكون فقيها مفتيا ولا أصوليا نظارا ولا متكلما مناظرا بل لم يرد حتى فى ظلاله أن يأخذ كتابه طابع تفسير فمن الظلم له اذن أن يضعه أصدقاؤه موضع المفتى والمتكلم والأصولى ، هو يتكلم فى واد وأولئك فى واد والأمة تحتاجهم وتحتاجه ولا يغنى كلامهم عن كلامه ولا كلامه عن كلامهم وقديما قالوا : لا يغنى كتاب عن كتاب •

* * *

يقول الأستاذ البنا فى رسالة التعاليم فى القاعدة السابعة من قواعد الفهم :

« ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع اماما من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلة امامه وأن يتقبل كل ارشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته وأن يستكمل نقصه العلمى ان كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر » •

فى هذه القاعدة جمع الأستاذ البنا أدب السير العلمى كله ومراحله وأدب المسلم أمام الارشاد والنصيحة والتربية وموقفه من الدليل فالأستاذ رحمه الله تلقى ما اعتمدته الأمة ووجه اليه . ولكنه مع ذلك حرر من أمراضه الكثيرة التى رافقته فهو يأخذ الخير الذى وصلت اليه الأجيال السابقة ويحاول تحريره من دخنه وهذا هو جوهر حركة الأستاذ البنا أخذ الخير الموروث وتحريره من الدخن العالق به .

* * *

ويكمل الأستاذ موقفه من قضايا الفقه فى القاعدة الثامة فيقول :

« والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سببا للتفرق فى الدين ولا يؤدى الى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول الى الحقيقة من غير أن يجر ذلك الى المراء المذموم والتعصب » .

وهكذا نجد أنه فى مواضيع الفقه وضع الأستاذ البنا رحمه الله الأمور فى مواضعها أخذ للخير واقرار له وبه وتحرير من الدخن الذى رافقه .

ويكمل الأستاذ موقفه من موضوع الفقه فيقول :

« وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع » وهذا موقف علمى دعوى وتربوى بآن واحد » .

هذا كله على مستوى الأفراد أما على مستوى الدولة ، فانه يقول فى القاعدة الخامسة : « ورأى الامام ونائبه فيما لا نص فيه وفيما يحتمل وجوها عدة وفى المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات » .

هذا رأى الأستاذ رحمه الله فى موضوع الفقه والمذهبية على مستوى الفرد والدولة فهل ترى بينه وبين ما استقر عليه أهل العلم فى هذه الأمة خلافا ؟ .. حتما لا .

* * *

اننا لو أردنا أن نلخص موقفنا كحركة من هذا الموضوع فاننا نقول :

اننا نعطى الأخ حرية الالتزام بالمذهب الفقهى الذى يريده ، ولكننا

نطالبه أن يتفقه فيه • ونعتبر المدارس الفقهية ثروة تشريعية هائلة ولصالح هذه الأمة ، وسنشجع وجود الاختصاصيين فى هذه المدارس ، وسنوجد دور الفتوى المتعددة على كل المذاهب فى حالة قيام الدولة ليستفتيها الأفراد والدولة فى كل أمر • ونعتقد أن مذهبا واحدا لا يسع هذه الأمة ولم يسعها فى يوم من الأيام بل نحن فى عصر نحتاج معه الى مجموع أقوال الأئمة أكثر من أى عصر سبق ، ونعتقد أن للدولة المسلمة خيارات واسعة فى أن تختار رأيا من مجموعة الآراء الفقهية لتفرضه كقانون على الأمة ، ونرى أن التحقيق العلمى واجب العلماء ولا نضيق ذرعا بتحقيق عالم كائنا من كان ، وتحقيق أهل الحديث وأهل الظاهر من التحقيق الذى لا نضيق به ذرعا ولا نحاربه ، ونرى أن العالم المقتنع بوجهة نظر فقهية مكلف بها تكليفا خاصا • أما الذى لا يملك أهلية النظر بالأدلة فخياراته واسعة ما دام على رأى امام مجتهد وبذلك تكون قناعات الأفراد الشرعية قد أعطيت مداها وتحققت وحدة الأمة بوحدة تشريعها •

ولا شك أن دور الجماعة قبل السلطة وبعدها هو المنظم لهذا كله ونقصد بالجماعة ههنا جماعة المسلمين ونعتقد أنه لا جماعة كاملة للمسلمين الا بفكر الأستاذ البنا والا بنظرياته وتوجيهاته التى من جملتها الحب لكل العاملين المخلصين ولعله آن الأوان لنسجل قضية ونناقش فكرة •

أما القضية فهى تفصيل لاحدى الايجابيات فى دعوة الأستاذ البنا وأما الفكرة فهى كيف يجتمع فى دعوة الأستاذ البنا وجود المذهبية الفقهية ووحدة الجماعة ؟

ولاشك أن من تأمل الكلام السابق أدرك من خلال الكلام عن وحدة الأمة التشريعية مع وجود المذهبية كيف يمكن أن تتحقق وحدة الجماعة مع المذهبية الفقهية ومع ذلك فان كلاما ما ينبغى أن يقال فى هذا الموضوع :

ان حسن البنا من بين خلق الله فى هذا العصر استطاع أن يوجد القاسم المشترك الوحيد الذى يمكن أن يلتقى عليه المسلمون وتقوم لهم به جماعة جامعة • كما استطاع أن يوجد كل الأسس التى بها تقوم هذه الجماعة وتستمر وتحقق باذن الله انتصارات للاسلام وكل ذلك دون أن

يتخلى عن ذرة من الحق الذى أنزله الله عز وجل وكل ذلك فى بابه عجيب لا يتم الا بتوفيق •

* * *

لقد وضع الأستاذ البنا قواعد للفهم وقواعد للتربية وقواعد فى التنظيم وقواعد فى الاستراتيجية والحركة وأبقى الباب مفتوحا بعد ذلك لأنواع من الاختلافات فى وجهات النظر لا تضر وحدة الجماعة ما دام هناك التزام بتلك القواعد ، وما دام الاختلاف منضبطا بها وبهذا وأمثاله استطاع الأستاذ البنا أن يقيم بناء يتوسع على الزمان • لقد استطاع الأستاذ البنا أن يوجد الاطار الكلى الذى يضم المسلمين جميعا فكرا وتنظيما واستطاع أن يجمع بين الأفكار الصالحة كلها وينفى الأفكار الخاطئة كلها فجمع فى دعوته ما تفرق عند غيره من خير ، وأبعد جماعته عما يوجد فى غيرها من شر أو دخن ، وهو موضوع سنراه فى أكثر من مكان من سلسلتنا « **فى البناء** » بشكل واضح فلنعد الى موضوعنا •

* * *

— ٢ —

ومنذ عهد الصحابة والتابعين ظهرت بذور أمور خطيرة فى باب العقائد ، وظهرت بدايات الفرق الاسلامية الرئيسية ، فظهر الخوارج ، وظهر القدرية الذين يؤمنون أن لا قدر وظهر التشيع الغالى ، وظهرت بذور الورع الجاهل ، وما يستتبعه ذلك من مواقف خاطئة متطرفة ، وطرحت أسئلة كثيرة فى باب العقائد تدل على فساد فى القلب ورغبة فى التحذلق أو التعجيز ، ودخل فى الاسلام أبناء أديان متعددة وبعضهم لم يكن صادقا فى دخوله ، وبدأ حوار بين المسلمين وغيرهم فى أمور كثيرة ، ثم ترجمت كتب الفلسفة اليونانية وغيرها • وظهرت أفكار جديدة وغريبة • وخلال ذلك كله نشأت الدعوات الباطنية ، وظهر مقابلها ردود فعل كثيرة فظهر المشبهة والمعطلة ، وظهر المؤولة والحرفيون ، وبقدر ما كان أهل السنة والجماعة يفرون من الفلسفة والتعقيد فى باب العقائد ويحرصون أن يبقى الصفاء فى الاعتقاد وجدوا أنفسهم مضطرين للرد والاجابة ثم لتقرير العقائد الصحيحة فى كل مسألة وهكذا نشأ وبلا خيار منهم علم العقائد الاسلامية على طريقة أهل السنة والجماعة •

ولقد استجروا استجرارا لأن يتكلموا فى آلاف المسائل ولم يكن أمامهم الا أن يتكلموا . وهكذا كان الدأب والشأن فى كل عصر ، وكان لكل عصر مشاكله ومسائله وقضاياه وبحوثه وفتنه حتى جاء عصرنا وفيه زيادة على ما فى العصور .

وكما وجد فى الفقه مؤلفون وكتب ، وكما وجد فى الفقه أئمة أجمعت الأمة على قبولهم ، فكذلك فى باب العقائد وجد أئمة أجمعت الأمة على امامتهم فى هذا الشأن كأبى الحسن الأشعرى وأبى منصور الماتريدى ، وهكذا وجد ما سمى بعلم أصول الدين أو ما سمى بعلم الكلام أو ما سمى بعلم التوحيد أو ما سمى بالفقه الأكبر أو ما سمى بعلم الاعتقاد أو العقيدة أو العقائد الاسلامية .

* * *

وأمام كثرة الفرق وكثرة أئمة الضلالة وأمام نشاطهم الذى لا يقف عند حدود لم يكن أمام المسلم خيار فى ألا يدرس هذا العلم بمسائله المشهورة ليكون عنده عصمة عن الزلل أو الخطأ أو الانحراف أو الوقوع فى الشبه أو البدع أو الاستجابة لأصحاب الضلال وأسبابه ومن ثم اعتبرت دراسة علم العقائد من فروض العين عند العلماء على أن ما هو فرض عين فى حق كل انسان يختلف بحسب البيئة ونوع الشبه التى يمكن أن يصادفها وبحسب امكاناته العقلية وغير ذلك .

* * *

وكما أنه نشأ مع الفقه علم أصول الفقه فقد وجد مع علم العقائد علم أصول العقائد ، وهو علم يشترك فيه علم أصول الفقه وعلم المنطق العقلى بآن واحد ، وله أحكامه الخاصة وان كان لم يفرد بتأليف مستقل فبقى مشتتا بين كتب أصول الفقه وكتب المنطق وكتب العقائد نفسها . ومن ثم وقع بعض المؤلفين فى هذا العلم نفسه بأنواع من الخطأ ، ومع كثرة الصراع بين الفرق الاسلامية وكثرة الخلاف بين المتكلمين خلال العصور فقد سار هذا العلم أحيانا فى مسارات معقدة ، وبحث أمورا بعيدة الغور .

ولم يكن أمام الباحثين خيار كما رأينا فشىء يجر الى شىء ، ولكن هذا أدى بالباحثين المعاصرين ومنهم سيد قطب رحمه الله الى

أن يلاحظوا الفارق الكبير بين الطريقة القرآنية فى عرض العقيدة وبين طريقة المتكلمين • وبين الطريقة القـرآنية فى تربية العقيدة وبين طريقة المتكلمين ، ومن ثم حاولوا ــ أى المعاصرون ــ أن يقدموا شيئا جديدا فى هذا الباب وقد قدموا وأحسنوا ولكن ذلك لا يغنى عن دراسة العقائد فى كتبها كما عرضها أهل السنة والجماعة لأن دراسة هذه الكتب هى وحدها العاصم بعون الله من الوقوع فى زلل الاعتقاد الذى وقعت فيه الفرق الاسلامية الكثيرة •

ولذلك كان الأستاذ البنا واضحا تماما اذ جعل من واجبات اخوانه أن يدرسوا رسالة فى أصول الدين وقد ذكر ذلك بوضوح فى رسالة التعاليم •

على أنه فى الوقت نفسه وضع أثناء ذكره للقواعد العشرين فى أصول الفهم لدعوة الاخوان المسلمين مجموعة قواعد تصفى كثيرا من الأمور الخلافية فى باب الاعتقاد بل نقول : انه وضع فيها حجر الأساس لحركة اسلامية عالمية واحدة تضم كل المسلمين •

وههنا نحب أن نذكر قضية من أهم القضايا التى نفهم على ضوئها دعوة الاخوان المسلمين كما أرادها الأستاذ البنا رحمه الله :

انها دعوة كاملة تريد أن تنبى المسلم فى كل جانب ، ومن ذلك العلم ، فهى فى العلم تريد ألا تبقى عند المسلم ثغرة ان فى الفقه كما رأينا أو فى الاعتقاد كما نرى أو فى التصوف والسلوك كما سنرى ، فهى تحاول أن ترتقى بالمسلم من النقص الى الكمال ، وهى مع هذا كله تريد أن تربط المسلم بنظرة كاملة شاملة فى أمر الاسلام والمسلمين والعمل الاسلامى ، وهذه ميزة من أهم ميزات دعوة البنا •

فكثيرون من المسلمين وحتى العاملين اما مسلم أتقن علما وغفل عن آخر أو أتقن علوما وغابت عنه النظرة الكلية الشاملة للاسلام وأوضاع المسلمين والعمل الاسلامى الصحيح •

وحركة الاخوان المسلمين تبنى فى هذا كله فهى فى كل علم تحاول أن تحرره من الدخن الذى علق فيه خلال العصور ، وكل ذلك فى اطار نظرة كلية للاسلام واحتياجات المسلمين ووحدتهم •

ولنعد الى قضية العقائد :

فمن أدبنا نحن الاخوان المسلمين أو من واجباتنا أن يدرس الواحد منا رسالة فى أصول العقائد مع استذكاره دائما لأصول الفهم العشرين فى دعوتنا التى سجلها الأستاذ البنا فى رسالة التعاليم • وبذلك يجتمع لنا بآن واحد العلم بكل المسائل الأساسية التى لا ينبغى أن تغيب عن المسلم مع بقاء المسلم مشدودا الى الطريقة الفطرية الصافية فى الاعتقاد والتى كان عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم •

* * *

وفى سلسلتنا « **الأساس فى المنهج** » سنحاول أن نعرض لكل المسائل التى تبحث عادة فى كتب العقائد ، ونعرض فيها عقائد أهل الحق مع التدليل على صحتها وتبيان حدود الخلاف المقبول والخلاف المرفوض وفتح آفاق التعامل مع كل المسلمين على هدى فلعلنا بذلك نكون قد أسهمنا بدفع حركة الاخوان المسلمين فى طريقا الصحيح فى ما نريده من تحرير العلوم الاسلامية من دخنها وارجاعها الى فطريتها مع أخذها واتقانها ليجتمع للأخ مشاركته لأصحاب هذه العلوم فى علومهم مع تجنبه ما يؤخذ على أصحابها من مآخذ وكل ذلك ضمن نظرة واضحة للأمور •

* * *

اننا نرغب أن يأخذ الأخ المسلم حظه من دراسة العقائد الاسلامية كما سجلها أئمة الهدى وأن يكون ذلك مرتبطا بالنصوص وبفهمها الفهم الصحيح لتبقى الأصول واضحة والفروع واضحة فالعلم وحده هو العاصم بعون الله فى زمن كثر فيه ما يفتن عن دين الله عز وجل •

* * *

— ٣ —

لقد كان جيل الصحابة يصحب عنده العلم العمل ، وكان له حاله القلبى وسمته الأخلاقى والسلوكى ، وضعف على مر الزمن العمل ، وضعف الحال القلبى والسمت الأخلاقى • وهما المظهر الأعظم لهدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام • ومن ثم وجد التصوف الاسلامى كمحاولة لارجاع الأمر الى نصابه فى قضية العمل الظاهرى والحال القلبى للمسلم ثم سار هذا التصوف فى طرق وتعرجات حتى قـــال

ابن عربى نفسه : « احذر هذا الطريق فان أكثر الخوارج منه وانما هو طريق الهلك والملك فمن حقق علمه وعمله وحاله فقد نال عز الأبد والا فقد هلك مع من هلك » •

هذا التصوف الذى أريد له فى الأصل أن يكون تكميلا للمسلم فى العمل والحال مع العلم أصبح فى كثير من الأحيان طريق ضلال عن الحق والعياذ بالله • وجاء الأستاذ البنا وقد اختلط بالتصوف دخن كثير وكشأنه عليه الرحمة والرضوان مع العلمين الآخرين الفقه والعقائد أراد للمسلمين أن يأخذوا هذا العلم على صفائه الأول ؛ ووضع فى القواعد العشرين نفسها ما يعصم من انحرافات الناس فى هذا الشأن ؛ فأوجد البداية الصحيحة لتصوف سلفى سنى •

وسنحاول فى رسالة مستقلة فى التصوف وهى : « **تربيتنا الروحية** » أن نعطى لتصوفنا أبعاده الأصيلة • وفى سلسلتنا « **الأساس فى المنهج** » سنحاول أن نعرض لكل قضية من قضايا التصوف بمزيد البيان على ضوء النصوص ليكون مسارنا مستقيما وحجتنا على أمتنا قائمة •

* * *

أثناء كلام الأستاذ البنا رحمه الله عن سمات دعوة الاخوان المسلمين يقول : وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك أن الاخوان المسلمين :

١ ــ دعوة سلفية لأنهم يدعون الى العودة بالاسلام ؛ الى معينه الصافى من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

٢ ــ وطريقة سنية لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة فى كل شىء وبخاصة فى العقائد والعبادات ما وجدوا الى ذلك سبيلا •

٣ ــ وحقيقة صوفية لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس ونقاء القلب والمواظبة على الذكر والعمل والاعراض عن الخلق والحب فى الله والارتباط على الخير ••

* * *

ولتكن هذه نهاية الجولة الخامسة فى هذه الرسالة وبها عرفنا أن دعوتنا الى دراسة الفقه ودراسة العقائد ودراسة التصوف ليست غريبة على فكر الأستاذ البنا رحمه الله تعالى ؛ بل هى منه وتأكيدا له وتعميق لمضمونه • وعرفنا فى الوقت نفسه شيئا ما عن بعض أمور ترافق هذه العلوم وتحتاج الى تحرير أو تصحيح أو تنقيح •

* * *